

## الرسائل الاجتماعية في الأدب العربي: الماهية والخصائص

مولاي الحسن الحفيضي<sup>a</sup>

**المخلص:** تطوّر النثر في العصور التي تلت العصر الإسلامي حتى وصل إلى أوجهه في العهد العباسي إلى درجة أنه نال أهمية أكبر بكثير من الشعر، ووصل الأمر في النثر إلى تعدّد فنونه، فقد كان الناس في السابق يولون أهمية للشاعر لأنه يُدافع عن القبيلة في السلم والحرب، أما في نهاية العهد الأموي وبداية العهد العباسي فقد أصبح النثر أهم من الشعر، حتى أصبحت وظيفة الكاتب مطلوبة بشكل كبير، حتى إنه يمكن للكاتب أن يصير وزيرا لكن الشاعر لا يكون كذلك، فبدأ الناس يُربّون أولادهم على تعلم النثر الأدبي، وبهذا الشكل تقدم النثر على الشعر، فأصبح علم الإنشاء مدرسة واستمر الأمر هكذا. وفن الرسالة من بين فنون النثر الذي تطور وازدهر، وهي نوع من النثر الذي يعبر فيه صاحبه عن العواطف تجاه المرسل إليه، ومن أجل ذلك رأينا أن كثيرا من الأدباء من يتخذ النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سنرى عند بعض من سُدرجُ بعض رسائلهم. فقد وجدوا في النثر يسرا في التعبير وفُسحة لعرض بعض المعاني التي يُلمّون بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أداءه. ويتميز فن الرسائل بالقصر بما يفى الموضوع، ويتميز أسلوبها بالبراعة في الكتابة، والتعبير عن المشاعر بأسلوب جميل.

**الكلمات المفتاحية:** الأدب العربي، الرسالة، فن الرسالة، الرسالة الاجتماعية، الرسالة الإخوانية.

<sup>a</sup> İğdır Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Temel İslam Bilimleri Bölümü  
hassanhafidi6@gmail.com

## Social Messages in Arabic Literature Essence and Features

MOULAY EL-HASSAN EL-HAFIDI

Geliş Tarihi: 26.03.2024 | Kabul Tarihi: 28.04.2024

**Abstract:** Prose developed in the ages that followed the Islamic era until it reached its peak in the Abbasid era to the extent that it received much more importance than poetry, and the matter in prose reached the multiplicity of its arts, as people previously gave importance to the poet because he defended the tribe in peace and war, but at the end of the Umayyad era and the beginning of the Abbasid era and the beginning of the Abbasid era, prose became more important than poetry, until the writer's job became highly sought after, so that the writer could become a minister, but the poet would not be, so people began to raise their children to learn literary prose, and in this way, prose advanced over poetry, so the science of creation became a school, and the matter continued like this. The art of the letter is one of the prose arts that developed and flourished, and it is a type of prose in which its owner expresses emotions towards the addressee, and for this reason, we saw that many writers take prose as a tool to express their feelings, as we will see with some of those whose letters we will list some of their letters. They found in prose an ease of expression and an opportunity to present some of the meanings that they are familiar with in all their nuances, which poetry cannot perform. The art of letters is characterized by the shortness of the subject matter, and their style is characterized by skillful writing and the expression of feelings in a beautiful style.

**Keywords:** Arabic literature, letter, letter art, social letter, brotherhood letter.

## المقدمة

تعددت فنون النثر العربي مع تطور المجتمع العربي، فقد كان العرب في بداية أمرهم يهتمون بالشعر والخطابة، إلا أنه مع مرور الزمن وبسبب ما أفلته ظروف الحياة والبيئة الاجتماعية المتطورة عصرا بعد عصر فقد ظهرت فنون أخرى وتطورت، فبدأوا يتناولون ألوانا من الأدب مثل المناظرات والمقامات وغيرها وزادوا عليها، فشاخ تصنيف الكتب العلمية والثقافية وأجادوا في ذلك.

وقد ظهر فن التراسل وانتشر بشكل أكبر انطلاقا من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وعرف أهل الجاهلية الرسالة، غير أنه لا تتوفر وثائق جاهلية كثيرة تدل على أن الجاهليين تداولوا الرسائل بشكل كبير، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة، فقد عرفوها، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية، ما جعل هذا الفن نادرا في العصر الجاهلي.

وكانت الرسالة في عصر صدر الإسلام عبارة عن جمل قصيرة تحتوي في نصها على الفكرة التي يريد المرسل إيصالها، وخصوصا ما يتعلق بالرسائل المبعوثة لأهل الديانات الأخرى لأجل دعوتهم إلى الإسلام والتوحيد، وقد بقيت على ماهي عليه، بحيث كان موضوع هذه الرسائل ينحصر فقط في الدعوة إلى الإسلام، ثم تطور الأمر بعد ذلك حين دخلت الأقوام في الإسلام أفواجا، فتغيرت مواضيع الرسالة قليلا، فما يبعثه الرسول صلى الله عليه وسلم من رسائل إلى ولاته، وإلى قواد الجيوش أصبح يتناول مواضيع أخرى، ويشير إلى أمور مختلفة. وأصبحت الرسالة مع توالي العصور تتضمن مقدمة وعرضا وخاتمة وتتميز بميزات أدبية.

وهكذا استمرت حال الرسائل في عهد الخلفاء الراشدين، فلم يأتوا في عصرهم بالجديد فيما يتعلق بأشكال النصوص، فقد بقيت نفس الرسائل الرسمية من حيث الشكل والمضمون متداولة.

وفي بحثنا هذا سنتناول الرسالة باعتبارها فنا من الفنون النثرية، وسنقوم أولا بتعريفها ونذكر أنواعها بشكل عام، ونشير إلى سماتها ومميزاتها وكذا عناصرها وننتقل إلى الحديث عن موضوعها وخصائصها وكذا روادها، ونورد بعض النماذج منها ونختم بخاتمة نخلص فيها لبعض الخلاصات.

## 1. تعريف الرسائل ومسمياتها

الرسائل نوع من أدب النثر، وُلد من رحم الأدب العربي، وهي فن أدبي رئيسي من فنون الإنشاء، كما أنها عبارة عن كلام مكتوب يعبر عن المشاعر والأحاسيس من خلال موضوع معين تتعدد مقاصده ومعالمه حسب ما يرمي المرسل إيصاله للمرسل إليه. وتعدّ الرسائل من أقدم فنون الأدب في النثر العربي، ولها شأن عظيم على مر العصور.

وقد تعددت الأسماء والمُسمّى واحد، فالرسائل الإخوانية تدخل ضمن الرسائل الاجتماعية، والأدبية هي صفتها، ولكننا مع ذلك نجد أن من الأدباء من يطلق عليها الاجتماعية، وهذا هو اسمها العام الذي تدخل فيه جميع أنواع الرسائل، سواء كانت تهنئة أو عتاباً، وسواء أكان المُرسِل متشوقاً متحسراً للقاء، أو عاتباً ولائماً وغاضباً على المرسل إليه، أما الإخوانية فرغم دخولها ضمن الاجتماعية إلا أنها تستأثر بالأخوة والمحبة، فتدخل ضمنها رسائل المُباركة والتهنئة والشوق والحنين دون غيرها، فهي رسائل خاصة ضمن الاجتماعية، ومنهم من يسمّيها الأدبية، وهذا إنما نعت ووصف لها، فهي تُكتب بصيغة أدبية، فتنتقي لها العبارات التي تتواءم مع الشوق في حالة الحنين، فتكون رقيقة عذبة سلسلة، وتتلاءم مع العتاب والتأنيب في الغضب فتعترئها الشدة والحزن.

والتفصيل في ذلك كما يلي:

### 1.1. الرسائل الاجتماعية

بما أن الإنسان اجتماعي بطبعه فلا بد له من التواصل مع الناس، فإن كانوا قريبين منه فهو يتواصل معهم بالكلام والحديث والنقاش، وإن كانوا بعيدين عنه فهو يرتبط معهم ويتصل بهم بالتراسل، لذا اقتضت تسمية هذا النوع من المراسلة الاجتماعية لما لها من دور في جمع شمل الناس وربط آصرتهم وشدّ الارتباط فيما بينهم.

والرسائل الاجتماعية هي رسائل العلاقات الشخصية بامتياز، وهذا النوع من الرسائل ظهر مع تفرّق الناس في الأمصار؛ إذ إن العلاقات الشخصية قائمة منذ القدم، ولكن الأدب برؤيته قد حصل فيه تطورات هائلة في الحقبة العباسية؛ إذ كانت هذه الحقبة حقبة ازدهار ونماء في كل شيء، وقد أبدع العباسيون في استخدامها وتطويرها، وهذا عائد للبيئة المحيطة، ونبغ أكثر من أديب وكاتب رسائل ذاع صيته في تلك الحقبة، وأصبحت الرسائل فناً يفوق الشعر في بعض الأحيان ويأخذ اختصاصاته".<sup>1</sup>

وهي في عمومها هي نوع من الكتابات التي تتناول العلاقات الودّية، وهي رسائل

<sup>1</sup> أنيس المقدسي، *تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي*، (لبنان: دار العلم للملايين، 1965)، 126-130.

تدور بين الأحباب والأصدقاء يُظهرون فيها مشاعرهم ومحبتهم تجاه الآخر، كما تُظهر هذه الرسائل العلاقة الإنسانية الخاصة بين الأفراد، وتُصوّر عواطفهم في حالات التهنته أو الشوق أو العتاب أو الاعتذار أو النصح أو غيرها.

## 2.1. الرسائل الإخوانية

ويُطلق عليها هذا الاسم لأنها تُتداول بين الإخوان والأقارب والأحبة، حيث يقوم شخص ما بكتابتها إلى شخص آخر، تجمع بينهما صداقة أو قرابة أو غيرها من العلاقات، يُعبّر له فيها عن أمور خاصة بينهما أو شؤون عامة.

وكذلك لأن موضوعها يكون مُنصبًا على التهنته بالمناسبات مثل الخطبة أو الزواج أو ولادة مولود.. لذلك فهي تعكس المحبة والود، وعليه يكون المُسمّى منطبقا عليها لما ينتج عن ذلك زيادة الوثام والألفة بين الناس.

وهناك نموذج من رسالة لعبد الحميد الكاتب بعثها إلى أخ له زُوق بولد حيث كتب يقول: "أما بعد، فإني ما أعترف من مواهب الله نعمة خصصت بمزيتها وأصفت بخصيصها كانت أسرى من هبة الله لي ولدا سميته فلانا، وأمّلت بقائه بعدي حياة ذكري، وحسن خلافتي في حرمي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعا لي إلى ربه عند خلواته في صلواته وحجه وكل موطن من موطن طاعته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك لي وجددي وظهر به سروري.. وذلك أملنا منه في بلوغ مناوق الأنفس من طول المدة، مقرون تواليها بمواضي خواليها".<sup>2</sup>

وكتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له؛ حيث كتب يقول: "بارك الله في مولودك الذي أنك، وهناك نعمته بعطيته، وملاك كرامته بفائدته، وأدام سرورك بزيادته، وجعله بارا تقيا، ميمونا مباركا زكيا، ممدودا له في البقاء، مبلغا غاية الأمل، مشدودا به عضدك.."<sup>3</sup>

ويختلف الموضوع والأسلوب فيها حسب العلاقة بالمرسل إليه، حيث لا يتصنع الكاتب ولا يتكلف، ويوجز رسالته بحيث لا تؤدي بالمرسل إليه إلى الملل، وتتخللها عبارات الود والصداقة، وتُختتم بالتحية والشوق والتعبير عن الاحترام، وهذا النوع من الرسائل يدخل ضمن الرسالة الاجتماعية موضوع بحثنا.

<sup>2</sup> أحمد أمين، المنتخب من أدب العرب، (مصر: دار الكتاب العربي، 1954)، 68/1.

<sup>3</sup> أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، (بيروت، المكتبة العلمية، د.ت)، 367/3.

وقد شاعت الكتابات الشخصية بحكم تباعد العرب في مواطنهم ورحيل الناس إلى أمكنة أخرى، وتأثير الظروف الحياتية من موت يقتضي التعزية أو مناسبة تقتضي التهنته أو موقف يقتضي الاعتذار أو العتاب،<sup>4</sup> ولكن مع الأسف ما وُجد من هذا النوع من الرسائل في العصر الأموي قليل، فمن الطبيعي أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة وإنما هي رسائل شخصية تندثر بعدما تستوفي غرضها.

هذه الرسائل هي أيضا لون من النثر يصور العلاقات الاجتماعية بكافة أنواعها، فكتاب الرسالة يعبر من خلالها عن فرحه أو عتابه، أو يُعرب عن تهنتته أو اعتذاره في موضوع ما، وتُكتب بأسلوب رائع في العرض وبارع في الوصف، يتمكن من القلب ويستحوذ على القُود. كما تتمثل فيها العواطف الإنسانية في أصدق معانيها، وتتجلى فيها المشاعر الأخوية النبيلة في أروع صورها وأكثرها إشراقا، فتبرز العلاقات الإنسانية المتباينة التي تُجسد معاني الأخوة والمحبة المتبادلة بين الأدباء، وتعكس شخصياتهم وثقافتهم، يُضاف إلى ذلك قيمتها التاريخية، والأدبية والاجتماعية والعلمية.<sup>5</sup>

وبذلك ناسف النثر الشعري في مجالاته الخاصة مثل مجالات الوجدان، وأظهر الكتاب في ذلك براعة فائقة، إذ بلغ كثير منهم الذروة في الفن الكتابي، كما أن الشعراء أنفسهم أدلوا بدلائهم في تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير في نفوس من تُوجه إليهم، وبذلك توفّر للرسائل الاجتماعية كثير من الكتاب والشعراء النابهين الذين استطاعوا أن يثبوا في النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير.<sup>6</sup>

وقد شاع استعمال لفظ "كتاب" عوضا عن الرسالة، كما ورد في رسالة جوابية كتبها ابن عبد البر إلى أحد إخوانه يعبر فيها عن مدى إعجابه بأدبه.

## 2. عناصرها وسماتها الشكلية

للرسالة سمات كثيرة يجب على المُرسِل مراعاتها عند كتابته لها، لأجل استيفائها لمضمونها دون إغفال أي شيء قد يكون مُهمًا وله تأثير على مستلم الرسالة، ومن أهم العناصر التي تتكون منها الرسالة:

<sup>4</sup> رفيق خليل عطوي، فن النثر في العصر الأموي، (لبنان: الأكاديمية اللبنانية للكتاب، 2002)، 50.

<sup>5</sup> ابتسام علي رويجح الصبح، الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري، محاورها المضمونية وسماتها الشكلية، إشراف: عبد الله إبراهيم الزهراي، (السعودية: جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع الأدب والبلاغة، 2004)، 2.

<sup>6</sup> شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (مصر: دار المعارف، 1995)، 562/2.

أنها كانت في الماضي تُرسل عبر البريد الذي نظّمته الدولة، ولم يكن كما هو الأمر اليوم في عصرنا الحالي، فيكتب المرسل اسم المرسل إليه ولقبه وعنوانه، ولا ينسى المرسل كذلك أن يُبين مصدر الرسالة واسم المرسل والتاريخ. ثم تُستهلّ الرسالة بمقدمة أو دياحة يبدأ بها المرسل الحديث بألفاظ جميلة تُشوّق قارئ الرسالة فيها، وتبدأ بالتحية والسلام، فلا بد من إلقاء التحية على المرسل؛ وفي تلك المقدمة يتم التمهيدي للفكرة الرئيسية التي يحتوي عليها موضوع الرسالة. ومنها ينتقل إلى الموضوع مباشرة، ويعبر المرسل في رسالته عن فكرته ويوصل معلوماته بشكل سليم، فيحدد من خلاله غرضه من الرسالة، ويحدد نوعها، كأن تكون تهنئة، أو دعوة إلى حضور مناسبة، أو إبداء شكر على معروف، وتكون بأسلوب بسيط وبعبارة سلسة وخالية من التكلف.

وبما أن موضوع الرسالة هو أهم قسم فيها فلا بد للمرسل أن يعنى بهذا الجزء عناية فائقة، فهو الذي يتضمن الفكرة الرئيسية التي من أجلها كُتبت الرسالة، وعليه فلا بد من الوضوح حتى يستطيع نقل الفكرة كاملة للمرسل إليه.

ثم يختم المرسل رسالته بخاتمة تكون بمثابة تلخيص مضمون الرسالة مع وداع يدعو له فيه بموفور الصحة والعافية، ويرجو اللقاء به في أقرب وقت، ويعتبر له في الرسالة عن مدى محبته، أو يكرر اعتذاره أو يُصرّ على دعوته، ويذكر توصياته بأدب ولطف.

### 3. خصائص الرسائل الاجتماعية

للرسائل الاجتماعية خصائص تجعلها رسائل جيدة ومعبرة تجلب انتباه قارئها، وهذه الخصائص إما أن تكون شكلية تتعلق بالألفاظ والعبارات والأساليب، فتكون ألفاظها واضحة وسهلة ومختارة بعناية فائقة، كما لا بد أن تخلو من التكلف أو المبالغة أو الحشو في الكلام، أو التويل في العبارات، إفاء بغرض الرسالة، حيث إن العبارات تكون دقيقة وجيدة وعالية، ومنتقاة بشكل جميل، وواضحة تراعي غرض الرسالة، وتكون خالية من الغموض والتعقيد، ومشحونة بالمعاني وهي واضحة، حتى لا يمل المرسل إليه منها، كما يكون أسلوبها بسيطاً بعيداً عن التكلف، مع استخدام عبارات بسيطة وبعيدة عن زخرفة الألفاظ، ولا بأس أن تتضمن العبارات الإيقاع الموسيقي فهو يتواءم مع التعبير عن المشاعر والأحاسيس.

وإما أن تكون الخصائص أسلوبية وهي التي تتعلق بمضمون الرسائل، حيث تنبعث منها حرارة العاطفة وصدق الإحساس، وتظهر فيها البراعة في عرض الفكرة والدقة في تنظيمها، وكذا التفنن في كتابة التصوير والتألق في الخيال، فيتقني الكاتب كلمات تُناسب المقام، وتُراعي الظروف، وتُدخل السرور على المرسل إليه في التهنئة أو المباركة، وتواسيه

في التعزية أو المواساة. فيكون التعبير فيها بأسلوب سلس، ويتنوع مطلعها وخاتمتها، ويمكن أن تتضمن بعض الأبيات الشعرية أو الأمثال والحكم، وتُختتم بالدعاء. كما يغلب عليها طابع المجاملة، والبُعد عن الأسلوب الجاف، ويتم فيها التناسب بين الموضوع والألفاظ المستعملة.

ورغم كل ذلك فليس للرسائل الاجتماعية قواعد وأصول محددة يجب اتباعها لكي تكون الرسالة مقبولة لدى الجميع، وإنما يختلف الأمر من كاتب إلى آخر، غير أنه يمكن أن نقول إنه لا بد من كتابة الرسائل بالشكل المتعارف عليه بين الناس من استهلال الرسالة بالتحية التي تعتبر بمثابة افتتاحية لها، وإبراز المشاعر الخالصة بعبارات رقيقة مصقولة، ثم تناول الموضوع بعرض بسيط وبلغة سهلة، سليمة المعنى، ومتناسبة في الكلام، وفيها حسن تخلص بين أجزاء الرسالة ووصولاً إلى الخاتمة.

#### 4. موضوع الرسائل الاجتماعية

الرسائل الاجتماعية على أنواع كثيرة، فهي تختلف حسب أغراضها، وحسب مكانة الطرف المرسل إليه أيضاً، ولذلك فهي قد نمت على مرّ العصور نموّاً واسعاً، وهي الرسائل التي تُصوّر عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة، ومن مديح وهجاء، وشوق وحنين، ومن عتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة وتبريك واستمناح، ورتاء أو تعزية، قال القلقشندي: "وأما المترسلون فإنما يترسلون في أمر سداد نعر، وإصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو مجادلة لمسألة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعبطية، أو تعزية برزية، أو ما شاكل ذلك".<sup>7</sup>

وقد كثرت وانتشرت لعدّة أسباب منها ظهور طبقة ممتازة من الكُتّاب الذين يُجيدون في النثر إجادة رائعة، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين، إذ كانوا يتمتّعون بثقافة واسعة، وكانوا يُعنون بتحبير كلامهم وتجويده، وحشد كل ما يمكن فيه من عناية فنية.

كما أن مرونة النثر وُسر تعابيره، وقدرته على تصوير المعاني بتفاريحها قدرة لا تُتاح للشعر، لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية. وقد طوّع الكُتّاب الديوانيون أساليبه ومرّونها على أن تحمل كثيراً من المعاني الجديدة غير المألوفة.

أما الموضوعات التي تُلامسها الرسائل الاجتماعية فكثيرة ومتنوعة، فهي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم الإيجابية من تهنئة ومديح وشكر ومباركة وتعبير عن فرح، أو

<sup>7</sup> ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع)، 7/4.

السلبية من تعزية ومواساة وهجاء وعتاب واعتذار أو توجيه.

وممن اشتهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي قُتل بخراسان، فقد كان لِسنا بليغا، يعرف كيف يحوك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً،<sup>8</sup> إذ يقول: "أما بعد فقد عاقى الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتي جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولك في إخائك، وأياسني آخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحا، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام".<sup>9</sup>

وقد كانت للرسالة في القرن الأول من الفتح أغراض محددة أملت ظروف العصر، وكان كاتبها لا يلتزم فيها سجعا ولا زخرفة، إنما كان يهتم بإيصال الفكرة فحسب، ثم حظيت كتابة الرسائل بعد ذلك بكتّاب معظمهم من فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير، وأن يعالجوا شتى الموضوعات، فظهرت الرسائل الاجتماعية بعد الديوانية.

وإذا كانت للرسائل الديوانية موضوعات متنوعة تكاد تشمل مختلف مجالات الحياة السياسية التي تتداخل في بعض الجوانب منها بالاجتماعية مثل محاربة الآفات الاجتماعية ومكافحة الظلم والدعوة إلى وحدة الصف وإطاعة أولي الأمر، فإن مجالها الأساس هو السياسي، فهي مجموعة من الرسائل المتبادلة بين الحكام وأعضاء الدولة، ويدخل فيها المجال الديني أيضا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، فإن موضوعات الرسائل الاجتماعية تنحصر في المجال الاجتماعي والعلاقات الأخوية بين الناس، فهي تمس الجانب الأخوي بما فيه من مباركات وتهنئات وعتاب وغيرها.

وقد جمع العلامة المغربي عبد الله كنون في كتابه النبوغ المغربي مجموعة من النماذج من الرسائل السلطانية أي الديوانية والاجتماعية بما فيها الإخوانية.<sup>10</sup> ومن ضمنها رسالة للأديب محمد ابن إبراهيم الفاسي إلى الشهاب محمود الخفاجي جواباً عن كتاب بعث به إليه، ورسالة للقاضي أبي عبد الله الفشتالي إلى ابن الخطيب جواباً عن مخاطبة مدح وثناء

<sup>8</sup> ضيف، تاريخ الأدب، 2/464.

<sup>9</sup> عثمان بن أبي بحر الجاحظ، البيان والتبيين، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1423 هـ)، 84/2.

<sup>10</sup> عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، (بيروت: مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني)، 407/2 -

بعث بها إليه، ورسالة أبي جعفر بن عطية إلى عبد المؤمن يستعطفه بها، وغيرها من الرسائل. ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صوراً مختلفة من التميمي، وممن روى له كثيراً من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر، وله رسائل كثيرة في الشفاعات والوسائل والمودة وفي التهئة والتعزية، من ذلك تعزيته لأب في فتى له استشهد في قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول: "كُتبت عن قلب يقشعر، ونفس بين ضلوعها لا تستقر، لخبر الرّزء الهاجم، والنبا الشنيع الكالم.. فيا لها حسرة ما أنكاها 11 للنفوس، وجمرة ما أذكاها 12 في القلوب، وروعة ما أفتها للأعضاء، ولوعة ما أحرها على الأكباد.."<sup>13</sup>

كما لا يخفى على أي باحث أن كتاب جمهرة رسائل العرب يعجّ بمجموعة من الرسائل الإخوانية، وعلى رأسها رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم،<sup>14</sup> وقد نقل الأديب أنيس المقدسي في كتابه فنون النثر العربي القديم، مجموعة منها.<sup>15</sup>

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى، والفقهاء الحسن بمداخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغي أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولي على عقله، فيقضي له حاجته.

وقد أورد ابن بسام على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره، وساق للأخير رسالة شكر لمن أنفذه من ضنك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان في ثراء وحال حسنة قائلاً: «كنت قد نشأت في معقل من العفا 16 والوفور، مُحدقا بسور من الأمن والستر، حتى أرسل إليّ سلطان الفقر، رسولا من نوب الدهر، يريد استنزالي إليه، وخضوعي بين يديه، فأبيت من ذلك عليه، فغزاني بكتائب من التّوائب، تسير تحت ألوية المصائب، تهرق بسيوف الزّوايا، وتشهر أسنة المنايا، يرمون عن سبي الأوجال،

<sup>11</sup> ما أنكاها أي ما أشد جرحها وألمها.

<sup>12</sup> ما أحرها.

<sup>13</sup> أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، (ليبيا: الدار العربية للكتاب، 1981)، 3/ 219.

<sup>14</sup> صفوت، جمهرة رسائل العرب، 1/ 40.

<sup>15</sup> المقدسي، فنون النثر، 43.

<sup>16</sup> كثرة الخير وطيب العيش.

ويضربون طول الذعر وسوء الحال، بأيدي باطشة لا تكلّ، وبصائر ثابتة لا تمّل".<sup>17</sup> ويمتاز هذا النوع من الرسائل بالعاطفة والإطناب في الأسلوب، وطول الجمل، وتعدد الأفكار، كما يهتم فيها المُرسِل بالاعتناء بالألفاظ والعبارات، حيث يُجملها ويُحسّنها ما استطاع لذلك سبيلا، وقد تطور هذا النوع حتى بات يُعرف بِفَنِّ الكتابة.

#### 5. رواد الرسائل الاجتماعية ونماذج منها

وقد نبغ في هذا الفنّ الثري ثلّة من الأدباء وجمهرة من المؤلفين، حتى صارت مرتبة الوزارة وديوان الإنشاء في العصر العباسي لا يعتليهما إلا أديب ماهر.

وقد جمع رسائل الرسائل صلى الله عليه وسلم محمد حميد الله في كتابه المعنون بمجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وهي متفرقة في كتب السيرة والحديث والتاريخ.

وخير ما نستهلّ به نماذج الرسائل الاجتماعية رسالة إخوانية للنبي صلى الله عليه وسلم يُعزّي فيها معاذ بن جبل رضي الله عنه لَمّا توفي ابنه، حيث يقول:<sup>18</sup>

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليك، فإنّي أحمد لك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فيعظّم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإيّاك الشكر، إنّ أنفسنا وأموالنا وأولادنا وأهلنا من مواهبه وعواريه المستودعة، متّعك به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير. الصلاة والرحمة إن صبرت واحتسبت، فلا تجمعنّ عليك خصلتين أن يحبط جزعك أجرك، فتندم على ما فاتك، فلو قدّمت على ثواب مصيبتك، وقد أطعت ربك، وتنجزت موعدك، علمت أنّ المصيبة قد قُضرت، واعلم أنّ الجزع لا يردّ ميتاً، ولم ينفع خزناً، فأحسّن العزاء، وتنجزّ الموعد، وليذهب أسفك ما هو نازل بك، فكان قد، والسلام".<sup>19</sup>

ومن نماذج الرسالة الاجتماعية أيضاً ما كتبه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان حيث قال: "أما بعد فإننا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا، إلا ما بل وجه الأرض من الطش، والرش والرزاذ، حتى دقعت الأرض واقشعرت واغبرت، واثارت في نواحيها أعاصير تذرو دقائق الأرض من ترابها، وأمسك الفلاحون

<sup>17</sup> ابن بشام الشتريني، الذخيرة، 219/5.

<sup>18</sup> محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، (بيروت: دار النفائس، 1987).

<sup>19</sup> رواه النوري في المستدرک، 253/52.

بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها، وامتناعها، وأرضنا أرض سريع تغييرها، وشيك تنكرها، سيئ ظن أهلها عند قحوظ المطر، حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة، فأثارت زبرجا متقطعا متمصرا، ثم أعقبته الشمال يوم السبت، فطحطحت عنه جهامه. وألقت متقطعة، وجمعت متمصره، حتى انتضد، فاستوى، وطما وطحا، وكان جونا مرثعنا قريبا رواعده، ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل، يردف بعضه بعضا، كلما أردف شؤبوب أردفته شأبيب بشدة وقعة في العراض. وكتبت إلى أمير المؤمنين، وهي ترمي بمثل قطع القطن، قد ملاً اليباب، وسد الشعاب، وسقى منها كل ساق، فالحمد لله أنزل غيثه، ونشر رحمته من بعدها قنطوا، وهو الولي الحميد. والسلام".<sup>20</sup>

وتدور في كتب الأدب رسائل اجتماعية كثيرة مما دَبَّجَه كَتَّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء، فقد تداولها كثيرون، ونقلوها من يد إلى يد، وكل منهم يتأنق فيما يكتب منها ويحاول تجميل معانيها وتحسين صياغاتها فظلوا يبتئون فيها من مهارتهم الفنية.<sup>21</sup> ومن الرسائل الاجتماعية المشهورة رسالتا ابن زيدون الهزلية والجديية، ورسالة لسان الدين بن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون في الشوق إليه.<sup>22</sup>

والمطلع على تلك الرسائل في "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب" يجد أنها قد وردت في خمس رسائل وجهها ابن الخطيب إلى ابن خلدون، منها رسالتان فقط نجدها بالتعريف: الأولى موضوعها تعبير عن شوق، والثانية موضوعها تهنئة بالقدوم إلى الأندلس، أما الرسائل الثلاث الأخرى فهي الثانية والثالثة والخامسة حسب الترتيب في "ريحانة الكتاب"، وفيها تهنئة بالشفاء من مرض، وبزيادة مولود جديد لابن خلدون، والثانية فيها تهنئة بالخلاص من الشدة المادية والمعنوية التي لحقت ابن خلدون عندما كان في سجن أبي عنان، حيث كتب يقول: "كتبت أهني سيادتك بنعمة الخلاص من الشدة واستيعاب سعادة النصبه وطول المدة والسلامة من التحول العائدة بسوء التقول وذهاب التمول. فأنت اليوم غير مثلوم الوفا ولا متكدر الصفا، قرير الجفن بالإغفا، مجموع الشملم باليقين، والله يجمعه بالرفا".<sup>23</sup>

<sup>20</sup> صفوت، جمهرة رسائل العرب، 2/209.

<sup>21</sup> ضيف، تاريخ الأدب، 3/491.

<sup>22</sup> لسان الدين بن الخطيب، *ريحانة الكتاب ونُجعة المنتاب*، تح: محمد عبد الله عنان، (القاهرة: مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، 1980)، 2/184.

<sup>23</sup> لسان الدين ابن الخطيب، *نفاضة الجراب في علالة الاغتراب*، تح: أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، سلسلة تراثنا، د. ت.)، 348-349.

وقد اشتهرت مدرسة النثر في كتابة الرسالة، ومنها مدرسة عبد الحميد الكاتب؛ حيث يرى شوقي ضيف أن النثر تطور على يده تطوراً واسعاً؛ إذ تحوّلت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية، وصار التفتن في القول وتشعيب المعاني من أسس كتابتها.<sup>24</sup> وكذلك الخوارزمي وابن العميد والصاحب بن عباد والصولي والقاضي الفاضل وعثمان بن أبي بحر الجاحظ، وغيرهم كثير.<sup>25</sup>

ومن كُتاب الإخوانيات كذلك الأديب البارع الشاعر برهان الدين القيراطي والشاعر الفحل جمال الدين بن نبأة المصري والأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي، وللصفدي كتاب مخطوط طريف بدار الكتب المصرية اسمه ألحان السواجع سجّل فيه مراسلاته الإخوانية وردود إخوانه عليها.<sup>26</sup>

ونقل هنا عرضاً نموذجياً للرسائل الإخوانية التي تدخل ضمن الاجتماعية، وهو رسالة ابن الوردية في رثاء العالم الفقيه الإمام هبة الله بن عبد الرحيم البارزي الشافعي، وقد كتب بها إلى ابنه القاضي نجم الدين عبد الرحيم حيث قال: "وينتهي أنه بلغ المملوك وفاة الحبر الراسخ، بل انهداد الطور الشامخ، وزوال الجبل الباذج، الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروه بالندب، وذلك فرض، فشرقت أجفان المملوك بالدموع، واحترق قلبه بين الضلوع، وسواه في الحزن الصادر والوارد، واجتمعت القلوب لما تم لمأتم واحد، فالعلوم تبكيه، والمحاسن تعزي فيه، والحكم ينعاه والبر يتفداه والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده".<sup>27</sup>

وهناك بعض الرسائل الإخوانية على لسان ابن العميد إلى عضد الدولة، يهتته بقدم توأمين له، كما وقد كتب إبراهيم بك المويلحي رسالة يشكو بلسان حاجّ ما رأى إحدى السنين في الحج من فتك الوباء بالحجاج وإهمال السلطات شأنه وشأنهم، وقد ترجمت إلى التركية وعرضت على السلطان عبد الحميد.<sup>28</sup>

<sup>24</sup> ضيف، تاريخ الأدب، 2/ 478.

<sup>25</sup> راهي عثمان المرايطة، رسائل ابن العميد؛ دراسة فنية، (الأردن: الجامعة الأردنية - كلية الدراسات العليا، 2008)، 56 وما بعدها.

<sup>26</sup> محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه؛ في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، (مصر: دار الكتاب العربي، 1954)، 37.

<sup>27</sup> أبو حفص عمر بن مظفر زين الدين ابن الوردية، تاريخ ابن الوردية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996)، 311/2. وينظر ديوان ابن الوردية، 162.

<sup>28</sup> انظر نص الرسالة كاملة في المنتخب من أدب العرب، جمع وشرح: أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، (مصر: دار الكتاب العربي، 1954)، 1/ 21 - 24.

ونذكر بعض كتاب الرسائل في العصر العباسي بحسب ترتيب بعض الخلفاء العباسيين، ففي عهد السّفاح تميز عمارة بن حمزة، وفي عهد المنصور اشتهر مسعدة بن سعد ويوسف بن صبيح وجبل بن يزيد، وغسان بن عبد الحميد، أما في عهد المهدي فقد اعتلى عرش الرسالة أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار وإسماعيل بن صبيح ومطرّف بن أبي مطرّف العبدي ومحمد بن حجر.

ويجوز كتاب جمهرة رسائل العرب بمئات الرسائل الإخوانية نكتفي منها بهذا القدر لأن المقام لا يسمح بالتطويل".

### خاتمة

وخلاصة القول فالرسائل هي أسلوب من أساليب الشر يكتبها صاحبها لإيصال فكرة معينة لشخص آخر بعيد عنه، منها ثلاثة أنواع وهي الديوانية وهي الكتب الرسمية التي يبعثها الخليفة أو السلطان إلى عماله وولائه وقضاته، وتتعلق بمختلف شؤون الدولة، والاجتماعية التي كانت موضوع بحثنا وهي التي يتبادلها الناس والأصدقاء فيما بينهم في مناسبات شتى ولا تربطها أي علاقة، وقد اشتهر الكثيرون بها أمثال ابن المقفّع ومحمد بن زياد الحارثي وكلثوم بن عمرو العتابي وغيرهم، ويغلب عليها السجع، كما يغلب عليها طابع سائر الفنون الأدبية من كناية ومحسنات بديعية وغيرها. ومن ضمنها الرسالة الإخوانية حيث يقوم شاعر ما أو أديب ما بكتابة رسالة إلى صديقه للتهنئة بسبب زواج أو ولادة، أو للتعزية أو تأشيبا من جراء مصيبة.

### المصادر والمراجع

ابتسام علي رويج الصبح، الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري، محاورها المضمونية وسماتها الشكلية، إشراف: عبد الله إبراهيم الزهراي، (السعودية: جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع الأدب والبلاغة، 2004).

أبو الحسن علي بن بشام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، (ليبيا: الدار العربية للكتاب، 1981).

أبو حفص عمر بن مظفر زين الدين ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996).

أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، المنتخب من أدب العرب، (مصر: دار الكتاب العربي، 1954).

أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، (بيروت، المكتبة العلمية، د.ت).

- أنيس المقدسي، *تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي*، (لبنان: دار العلم للملايين، 1965).
- أنيس المقدسي، *فنون النثر العربي القديم*، (فلسطين: جامعة القدس المفتوحة، 2007).
- رامي عثمان المرابط، *رسائل ابن العميد؛ دراسة فنية*، إشراف: هاني صبحي العمدة، (الأردن: الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، 2008).
- رفيق خليل عطوي، *فن الشرف في العصر الأموي*، (لبنان: الأكاديمية اللبنانية للكتاب، 2002).
- شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، (مصر: دار المعارف، 1995).
- ضياء الدين بن الأثير، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، تح: أحمد الحوفي، (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع).
- عبد الله كنون، *النبوغ المغربي في الأدب العربي*، (بيروت: مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني، 1960).
- عثمان بن أبي بحر الجاحظ، *البيان والتبيين*، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1423 هـ).
- عمر الدسوقي، *نشأة النثر الحديث وتطوره*، (القاهرة، دار الفكر العربي، 2007).
- لسان الدين ابن الخطيب، *نفاضة الجراب في علالة الاغتراب*، تح: أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، سلسلة تراثنا، د. ت.).
- لسان الدين بن الخطيب، *ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب*، تح: محمد عبد الله عنان، (القاهرة: مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، 1980).
- محمد حميد الله، *مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة*، (بيروت: دار النفائس، 1987).

